في أبواب المدينة

ثنيّـــة الوداع*

للاستاذ علي الطنطاوي

مضت ساعة كاملة، ونحن نعالج الســيارة لنخرجهـا من الرمل، نرفعها طوراً بالآلة الرافعة وطوراً بأيدينـا، وننزح الرمال من طريقها، ثم نمدّ لهـا ألواح الخشب لتمشي عليهـا، ونجرّها بالحبال، وندفعها بالأيدي حتى إذا سال منا العرق، ونال منا التعب مشت على الألواح، حتى إذا وصلت إلى نهايتها، عادت فغاصت في الرمل الى الأبواب ... ...

فأيسنا وبلغ منا الجهـد، وهدّنا الجوع والتعب والحرّ والعطش، فألقينا بأنفسنا على الرمل صامتين مطرقين، حيارى قانطين

وتلفتّ فلم أر إلاّ الرمال المحرقة، تمتـد الى حيث لا يدرك البصر، متشابهة المناظر، متماثلة المشاهد ...

في مَهمهٍ تشابهت أرجاؤه، كأن لون أرضه سماؤه، فرحت أفكر في هذه السبعة عشر يوماً، وماقاسينا فيها من الجزع والتعب والجوع والعطش، وأتصور الغـد الرهيب الذي ينفد فيه ماؤنا وزادنا، ويلفحنا فيه سموم الحجاز وشمسه المحرقة، فأرتجف من الرعب وجعلت أحدّ النظر في هذا الأفق الرحيب، لعلي أرى قرية أو خياماً، فلا أرى إلاّ لمع السراب، ولا أبصر إلاّ هذه الجبال التي طلعت علينا أمس فاستبشرنا بهـا وابتهجنا وظننّـاها قريبة منا، فسرنا مائة وعشرين كيلاً وهي قيد أبصارنا، تلوح لنا من بعيد كأنها بحر معلّق حيال الأفق ضائع بين السماء والأرض ... لم تضح ولم تقترب

فشققت هذا السكون وصحت بالدليل (محمد المَـطَوى)

— يا محمد! إيش تكون هذه الجبال؟

— فقال: هذه يا خوى جبال المدينة، وحنّـا (ونحن) إن شا الله الظهر فيها

— قلت: ما تقول؟

ووثبت وثبة تطاير منها اليأس والخمول عن عاتقي، وأحسست كأن قد صبّ في أعصابي عزم أمة، وقوة جيش، وظننت أني لو أردت السحاب لنلته، ولو غالبت الأسد لغلبتها، ولو قبضت على الصخر لفتّته، وجعلت أقفز وأصرخ، لا أعي ما أنا فاعل، فقد استخفني الفرح، وسرّني من هذه الكلمة أكثر ما يسرّني أن يقال لي: أنت أمير المؤمنين

وصحت بأصحابي فقاموا كالأسود

***

عالجنا السيارات حتى أخرجناها من الرمل، وملنا بها عن هذه الكثبان حتى ألقيناها عن ايماننا، وانتهينا الى أرض شديدة درجت عليها السيارات، فاستندت الى النافذة، وأطلقت نفسي تطير في سماء الأماني، فلم أدع صورة للمدينة إلاّ تصورتها، وأقمتها أمام عينيّ، وأفضت عليها ما أستطيع من الجمال والجلال، فلا أطمئن إليها، ولا أجدها إلاّ دون مافي نفسي ... ولم يكن يربطني بالأرض إلا صوت الدليل، وهو يهتف بالسائق:

— سر عيناً، مل شمالاً، لج بين هذين التلّين، دع هـذه القارة على اليمين، احترس من هذا الشعب، تنكب هذه الرملة.. ثم يعود السكون

سرنا أربعين كيلاً أخرى، ولا تزال هـذه الجبال تلوح في الأفق كأنها خيال حلم بعيد، يشعّ منهـا نور غريب، يومض من وراء القفر، كما يومض الأمل المشرق في ظلمة اليأس، وكنا قد شارفنا سكة الحديد فتخطيناها مستعبرين، ودخلنا في أودية ما لها آخر غابت عنا فيها الجبال التي كنا نراها، فننتأنس بمرآها وقاسينا فيها الشدائد من التواء الأرض وكثرة الأحجار وتشابه المسالك، ولم يكن فينا من ينبس، الا أن يعرض لنا جبل أو شعب فأسأل الدليل عن اسمه لأكتبه في دفترى الذي سُرق مني في آخر الرحلة ... ثم أرجع الى صمتي الطويل

(*) انظر مقالينا (في طريق المدينة) الرسالة ٩٧ والرسالة ١٢٨

فلما زال النهار ، صاح بي الدليل :

— هيه . انت يالْ كاتب . اكتب : هذا أحد !

— فصحت : اذن قد وصلنا

— فقال : ما قلت لك الظهر ، هذا أحد ، بقي نصف ساعة .

لم يكن يدري الدليـل الاعرابي أيّ ذكريات انبعثت في نفسي حين قال : هذا أحد ! وأيّ عالم تجلى لعينيّ ، فرأيت المعركة قائمة والمسلمين ظافرين ، قد منحهم الله أكتاف العدوّ ، ورأيت الرّماة إذ يزلون عن أماكنهم ، يبتدرون الغنائم ، وخالداً حين يرتد بخيله على هؤلاء الذين عصوا أمر الرسول وغرّتهم الدنيا ، ورأيت النبيّ صلى الله عليـه وسلم ثابتاً مثل أحد ، وحوله صحابته الغرّ الميامين ، يذبون عن الدين ، ويحمون حمى النبوة ، ثم أبصرت هنداً قائمة على جثة البطل السميذع ، سيد الشهداء ، وكان قد أكل في بدر كبدها ، فأرادت أن تأكل كبده ، فشقت عنها فاستخرجتها فلاكتها ، فلما وجدت بفيها صلادة الصوان لفظتها

وأبصرت النبي صلى الله عليـه وسلم واقفاً عليه يبكي ، فلما رأى ما مثل به شهق ، ولم يكن منظر أوجع لقلبه منه ، ثم قال :

رحمك الله يا عم ، فلقد كنت وصولاً للرحم ، فعولاً للخيرات ، فوالله لئن أظفرني الله بالقوم لأمثلن بسبعين منهم ، فما برح حتى هبط عليه الوحي ، فقام يتلو قول الله جل وعزّ :

« وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » فانصرف وقد عفا

ورنّ في أذني صوت أبي سفيان : أعل هبل ، فتلفت ، فما رأيت هبل ، ولا شيعة هبل ، وإذا هو قد درج مع من درج ، لم يبق إلاّ الله الأعلى الأجل ، ثم سمعت صوت أبي سفيان يرنّ في أذني مرة ثانية ، يخرج من هناك من أرض الشام ، التي فتحها لهم سيد العـالم ، قوياً شديداً ، ينادي في المعركة الحمراء ، بصوت سمعه كل من في اليرموك :

يا نصر الله اقترب ، الثبات الثبات ، يامعشر المسلمين . فثبتوا وجاءهم النصر وملكوا سورية من أقصاها إلى أقصاها فهي لهم ولأبنائهم الى يوم القيامة ، ورأيت مئات من مثل هذه الصور ، فأحسست كأنما انتقلت الى العهد الأول ، أشهد هبوط الوحي ، وأرى جلال النبوة وعزة الاسلام . . .

ونظرت ، فاذا أحد لا يزال بعيداً ، يعترض هذا الوادي الذي نسير فيه مشرقاً بهياً ، تومض عروقه المختلفة الألوان من الأخضر البهيّ ، إلى الأحمر المشرق ، الى الأزرق اللامع ، فتمتزج هذه الألوان وتختلط ، فيكون لها في العين أبهى منظر ، وفي القلب أسمى شعور ، فازداد بي الشوق ، فأقبلت أحثث السائق وأستعجله ، أود لو تطوى له الأرض طياً أو يطير بنا الى المدينة طيراناً ، فلا أرى السـيارة تريم مكانها ، وأجد أحداً لا يزال بعيداً ، فأعود فأستحث السائق . . . ومالي لا أسرع إلى أحد وأحبه ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحد جبل يحبنا ونحبه . ومالي لا أزداد شوقاً الى المدينة ، وليس بيني وبينها إلاّ ربع ساعة ؟

وأعظم ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الخيام من الخيام

* * *

ولـما خرجنا من الوادي ، وانتهينا الى الفضاء الرحب ، رأينا وجه أحد وعلى سفحه النخيل والبساتين ، ورأينا سلعاً وهو جبل أسود عال ، يقوم حيال أحد فيحجب المدينة وراءه ، فلا يبدو منها إلاّ جانب الحرة ، وطرف النخيل ، فذكرت قول محمد بن عبد الملك وقد ورد بغداد فحنّ إلى المدينة :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بسلع ولم تغلق عليّ دروب
وهل أحد بادٍ لنـا وكأنه حصان امام المقربات جنيب
يخب السراب الضحل بيني وبينه فيبدو لعيني تارة ويغيب
فان شفائي نظرة ان نظرتها الى أحُدٍ والحرتان قريب
واني لأرعى النجم حتى كأنني على كل نجم في السماء رقيب
وأشتاق للبرق اليماني إن بدا وأزداد شوقاً أن تهب جنوب

* * *

وكان علينا أرطال من الغبار والأوساخ ، فاستحيينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ان ندخل مدينته ونسلم عليـه ، ونحن على مثل هـذه الحال ؟ وكانت البساتين والحيطان قريبة منا ، فسرنا اليها ، نخب في الرمل ، فلما دنونا من أحدها ، سمعت غناء موقعاً على ناي ، كأشجى وأطرب ما سمعت من الغناء فتعجبت ، ثم ذكرت أن أهل المدينـة مذ كانوا أطرب الناس وأبصرهم بالغناء ، وهممت بالدخول ، ثم أحجمت وقلت :

لعل المغني امرأة ، فلقـد كان الذي سمعت صوتاً طرباً رقيقاً لا يكون إلاّ لامرأة أو غلام ، ثم حانت مني التفاتة ، من فرجة

الباب ، فاذا المغنى عبد أسود كالليل ، واذا الذى حسبته ناياً ناعورة يديرها جمل ، لها مثل صوت النواعير فى حماه لكن صوتها أرق وأحلى ، واذا هذا السور الذى تلطمه الصحراء برمالها كما تضرب الأواذىّ صخرة الشاطئ ، قد عرش على جانبه الآخر الياسمين ، وأزهر عليه الفلّ ، وظللته الأشجار وحنا عليه النخل ، ورأينا الماء يهبط على الساقية ، كأنه ذوب اللجين ، ثم يجرى فيها صافياً عذباً متكسراً ، فجئنا برؤية الماء الجارى ، ولم نكن قد رأيناه منذ سبعة عشر يوماً ، الا مرة واحدة فى العلا ، واقتحمنا الباب ، وأقبلنا على الماء نغمس فيه أيدينا ، وأرجلنا ، ونضرب به وجوهنا ، ثم لا نشبع منه . ولا ننصرف عنه ، حتى أرحنا رائحة الحياة ، فاستلقينا على الأرض ننظر الى الصحراء الهائلة ، التى أفلتنا منها وضرب بيننا وبينها بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة ، وظاهره من قبله العذاب

* * *

اغتسلنا ولبسنا ثياباً بيضاء نظيفة ، وتطيبنا ، ثم ركبنا فى السيارات الى المدينة ، فلم نقطع سلماً حتى بدت لنا المدينة كصفحة الكف ، يحف بها النخيل ، وتكتنفها الحرار ، وتقوم فى وسطها القبة الخضراء ، تشق بنورها عنان السماء ، وتكشفت لنا دنيا كلها خير وحقيقة وجمال ، وعالم كله مجد وفضيلة وجلال

من هنا خرج جند الله الثلثمائة الى بدر ، فدكوا صرح الاستبداد والجهالة ، ورفعوا منار الحرية والعلم ، أقاموه على جماجم الشهداء ، وسقوه هاتيك الدماء ، فأضاء نوره الجزيرة كلها ، ثم قطع الرمل ، فأضاء الشام والعراق ، ثم قطع البحر فأضاء الهند واسبانية ، فاهتدى به الناس الى طريق الكمال الانسانىّ

من هنا خرج الأبطال الذين هدموا وبنوا وعلموا : هدموا الدول المتفسخة الجاهلة التى وقفت فى طريق الحضارة ، فلا هى تتقدم بها ولا هى تدعها تمشى فى طريقها . وبنوا الدولة التى ألفت بين فلسفة يونان وحضارة فارس وحكمة الهند ، وجعلتها جميعاً سفراً واحداً فاتحته القرآن ، وروحه الاسلام ، ثم جلسوا على منابر التدريس فى جامعات بغداد ومصر وقرطبة ليعلموا العالم ، فكان من تلاميذهم ملوك أوروبا وباباواتها ...

من هنا خرج أبو بكر وعمر ، وعبد الملك والمنصور والرشيد وعبد الرحمن الناصر وصلاح الدين وسليمان القانونى

من هنا خرج أبو حنيفة ومالك وسفيان والنووى والغزالى والفارابى وابن سينا وابن رشد

من هنا خرج خالد وسعد وقتيبة وطارق وسيف الدولة والمتنبى

من هنا خرج حسان والفرزدق وجرير وأبو تمام والمتنبى والمعرى

من هنا خرج الجاحظ وأبو حيان وابن حزم

من هنا خرج الف ألف عظيم وعظيم

تقدست أيتها المدينة ... أم المدن ، وظئر العظماء ؟

* * *

وكنا قد بلغنا هذا المضيق الصخرى ، بين هضبتى سلع ، فنظرت فى خريطة للمدينة كانت معى ، وقلت للدليل : أما هذا ذباب ؟ قال : بلى والله فمايدريك أنت ؟

قلت : أما هذا مسجد الراية ؟ قال : بلى . قلت : هذه هى ثنية الوداع ، وخفق قلبى خفقاناً شديدا ، وخالطنى شعور بالهيبة من دخول المدينة ، والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما فى نفسى من الفرح والسرور ، وجعلت أتأمل المدينة ، وقد دنونا منها ، حتى لقد كدنا نصير بين البيوت ، وأحدّق فى القبة الخضراء التى يثوى تحتها أفضل من مشى على الأرض وقد شخص بصرى وكدت لا أرى ما كان حولى لفرط ما أحس من جيشان العواطف فى نفسى ... حتى غامت المشاهد فى عينىّ ، وتداخلت كأنها صورة يضطرب بها الماء ، وأحسست كأنى قد خرجت من نفسى ، وانفصلت من حاضرى وذهبت أعيش فى عالم طلق لا أثر فيه لقيود الزمان والمكان ، فسمعت أصواتاً آتية من بعيد ... من بعيد ، وسمعتها تزداد وتقوى ، حتى تبينت فيها قرع الطبل ، ووعيت أصوات الولائد ، يضربن بالدفوف وينشدن :

طلع البدر علينا من « ثنيات الوداع »

وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

ورأيت المدينة قد سالت بأهلها ، فملأ الناس الحرّة وسدّوا الطرق ، وغطى النساء الأسطحة ، ولم يبق فى المدينة أحد إلا خرج لاستقبال سيد العالم ، وهو قادم ليس معه صلى الله عليه وسلم إلا الصديق الأعظم ، لا يلمع على جبينه التاج المرصع ، ولا يحمل فى يده صولجان الملك ، ولا تسير وراءه العساكر والجنود ، ولكن يضىء على جبينه نور النبوة ، ويحمل فى يده هدى القرآن ، وتسير وراءه الأجيال ، ويتبعه المستقبل ، وتحف به الملائكة ، ويؤيده الله !

ثم سار وسارت وراءه هـذه الجموع إلى القرية التى لبثت قروناً نائمة بين رمال الصحراء ، لا يدرى بها التاريخ ، ولم تسمع بها القسطنطينيـة ، ولم تعلم بوجودها روما ، فجاء هذا الرجل ليهزها وينفخ فيها روح الحياة ويجعلها أم الدنيا وعاصمة الأرض

إلى المعشر اليمانين الذين جعلوا بأسهم بينهم ، فلم تمتد عيونهم إلى أبعد من هذه الحرار ، ولم يطمعوا من المجد بأكثر من أن يسحق بعضهم بعضاً ، لينشئهم بالقرآن خلقاً آخر ، ويسلمهم مفاتيح الأرض ، ويضع فى أيديهم القلم الذين يكتبون به أعظم تاريخ للبطولة والعلم والعدالة ، فأطاعوا ولبوا ، ثم مشوا إلى القادسية واليرموك ، ثم أصبحوا سادة العالم ، ورأيت الأنصار يستبقون إلى إنزاله صلى الله عليه وسلم والتشرف به ويصيحون به :

هلم يا رسول الله إلى القوة والمنعة ، فيقول : خلوا سبيلها فانها مأمورة ، ويدعها تمشى وقد أرخى لها زمامها ما يحركها وهى تنظر يميناً وشمالاً ، حتى أتت دار بنى مالك النجار فبركت عند باب المسجد ، ثم ثارت وبركت فى مبركها الأول

فنزل عنها صلى الله عليه وسلم وقال : ههنا المنزل إن شاء الله ، وكان المسجد مربداً لغلامين يتيمين فى المدينة ، فاشتراه صلى الله عليه وسلم وانطلق يحمل الأحجار بيده الكريمة ليضع أسس أكبر جامعة بثت الهدى فى الأرض !

* * *

ونظرت فاذا السيارات أمام باب السلام ، فاشرأبت الأعناق وبرقت الأبصار ، ودمعت العيون ، وخفقت القلوب ، وتعالى الهتاف ، وكانت حال لا سبيل الى وصفها قط

فنزلنا ودخلنا المسجد نسلم على رسول الله صـلى الله عليه وسلم ... ...

على الطنطاوى

شركة مصر للملاحة البحرية

نبدأ بمشيئة الله رحلات فصل الصيف هذا العام ابتداء من أول مايو القادم وستطبق الشركة أجور السفر الصيفية على هذه الرحلات منذ بدئها فضلاً عما أدخلته الشركة على بواخرها من وسائل الراحة والرفاهية

الباخرة	تاريخ السفر من الاسكندرية	تاريخ العودة من مرسيليا
النيل	٧ مايو سنة ١٩٣٦	١٣ مايو سنة ١٩٣٦
»	٢١ مايو	٢٧ مايو
»	٤ يونيه	١٠ يونية
كوثر	١١ »	١٧ »
النيل	١٨ »	٢٤ »
كوثر	٢٥ »	أول يوليه
النيل	٢ يوليه	٨ »
كوثر	٩ »	١٥ »
النيل	١٦ »	٢٢ »
كوثر	٢٣ »	٢٩ »
النيل	٣٠ »	٥ أغسطس
»	١٣ أغسطس	١٩ منه
»	٢٧ »	٢ سبتمبر
كوثر	.....	٩ »
النيل	١٠ سبتمبر	١٥ »
كوثر	١٧ »	٢٣ »
النيل	٢٤ »	٣٠ »

أسعار السفر على الباخرة النيل

مليم	جنيه	
٦٠٠	١٥	الدرجة الأولى
٦٧٥	١٢	» الثانية
٨٠٠	٧	» الثالثة

أسعار السفر على الباخرة كوثر

مليم	جنيه	
٦٢٥	١٤	الدرجة الأولى
٧٥٠	٩	» الثانية
٥٠٠	٥	» الثالثة
٩٢٥	٢	» الرابعة